بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

كان عهد سعود استمراراً لعهد أبيه عبد العزيز ، مع زيادة في الحروب والتوسع ، والرخاء والثراء ، واستقرار في الأمن والطاعة .

كان هذا الإمام العظيم ، الذي لُقّب بالكبير ، مهيباً مرهوباً ، وكان الملوك والأمراء في الأقطار المجاورة لملكه يرتجفون خوفاً لمجرد ذكره ، وينهزمون فرقاً عند رؤيته مقبلاً نحوهم بجيوشه المنصورة ، فقد كان ، كما وصفه ابن بشر : « ثبتاً شجاعاً في الحروب ، محبباً اليه الجهاد ، في صغره وكبره ، وأعطي السعادة في مغازيه ، فلم تهزم له راية ، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية ، وكل أيامه مواسم ، ومغازيه غنائم ، وقذف الله الرعب في قلوب أعدائه ، فإذا سمعوا بغزاه ومعداه ، هرب كل منهم وترك أخاه وأباه ، وماله وما حواه .. » .

كان سعود يشبه ، في هذه الهالة المتوهجة اللاهبة التي تحيط باسمه ، نابوليون بونابرت ، امبراطور فرنسا ، الذي ظهر في زمانه ، ودوّخ البلاد الاوروبية بحروبه وفتوحاته ، وقد كانت سيرة هذين العملاقين مصداق قول المتنبي :

ولا تحسبن المجـــد زقاً وزينةً
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيـــا دوياً كأنما
تداول سمعَ المرء أنمـــله العشر

.. ولكن هذا الإمام العظيم رُوِّع في آخر أيامه بالغزو التركي المصري يجتاح بلاده فينتزع منه ، في حياتـــه ، الحرمين والطائف ، ثم يقضي ، في عهد ابنه عبد الله ، على ملكه الكبير ويدمّر عاصمته المجيدة : الدرعية .

كان هذا العدوان الهائل ، الذي انتدب له سلطان الترك واليه على مصر محمد علي باشا، جريمة فظيعة، وقفت الى زمن طويل حركة الوحدة العربية ، والنهضة القومية ، ولم يكن الدكتور طه حسين مسرفاً حين قـــال : « لولا أن الترك والمصريين اجتمعوا .. وحاربوه في داره بأسلحة لا عهد لأهل البادية بها .. لكان من المرجو أن يوحّـد.. كلمة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، كما وحّد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول » [1] .

هل نستطيع أن نأخذ على الإمام سعود أخطاء سياسية تورط بها ، في آخر أيامه ، مع كثرة فضائله وحسناته ، التي لا تحصى ولا تعد ، فساعدت على وقوع الكارثة التي انتهت بزوال الدولة السعودية الأولى ؟

والجواب : إن أحــداً لا يستطيع استكشاف الأقدار قبل وقوعها .. فقد تكتب الهزيمة على أحسن الزعماء وأفضل القادة ، لتبدل في ميزان القوى العالمية لا قبل لهم بالتغلب على آثاره .. ولكننا ، على كل حال ، نستطيع أن نأخذ على الإمام سعود أنه كان أقل من أبيه الإمام عبد العزيز كرماً و (مرونة) ، وربما

(١) قال طه حسين هذا في معرض كلامه عن الحركة الاصلاحية الوهابية في كتابه : (الحياة الأدبية في جزيرة العرب) .

كان يستطيع ، لو توافرت له هاتان الفضيلتان ، أن يتفادى بهما كثيراً من المتاعب والخسائر .

الكرم مع العشائر :

يقول بركارت إن الإمام سعود لو أنفق من ماله مثل ما أنفقه محمد علي ، في شراء العشائر .. ومعدات الحرب والذخائر ، لما استطاع خصومه أن يستولوا على الحرمين بسهولة ويسر ، ولما استطاعوا ، بعد ذلك ، أن يتابعوا زحفهم الى قلب نجد .

ولم تخف ناحية « الحرص على المال » ، عند سعود ، على المؤرخ النجدي ابن بشر ، فقال بأسلوبه الناعم :

« وأما عطاؤه للرعية وبثّ الصدقة فيهم فليس لي بها معرفة إلا قليل ، وكان يرسل في كلا زمان الى كل ناحيــة وبلد صدقةً ألف ريال وأقل وأكثر ... وهو في زمن عبد العزيز أكثر من ذلك .. » !

كان سعود أغنى من عبدالعزيز ، وكان يجب أن يكون عطاؤه على قدر ثرائه ، ولكنه كان أقل .

وهكذا .. رأينا زعيم عشيرة بدوية ، من الحجاز ، لم يكرمه سعود ، وأغدق عليه محمد علي الأموال والهدايا ، يترك صف سعود ويتبع أعداءه ، ولم يخجل من أن يقول للناس بكل سذاجة :

« لقد تركت دين المسلمين .. وتبعت دين الخوارج المشركين » !

.. والمال يفعل ذلك في المؤلفة قلوبهم ، وفي غيرهم أيضاً ..

المرونة مع الترك :

لم يستطع شريف مكة ، ولا وجهاؤها ، أن يثيروا الترك ويحملوهم على محاربة الإمام عبدالعزيز ، لأنه لم يتحد الأتراك تحدياً صارخاً كما فعل ابنه سعود .. فقد كان عبد العزيز أكثر (مرونة) من ابنه في سياسته الخارجية ، ومع أن

سعود أقدم في حياة أبيه على أعمال جريئة ،فيها كثير من التحدي للترك ، ولكن أباه استطاع أن يخرج منها بسلام ، فلما تولى سعود الإمامة وتلاحقت انتصاراته ، دفعه ذلك الى مزيد من التحدي للترك ، ويقال إنه ندم أخيراً على هذه السياسة وأراد إصلاحها ، ولكن القدر لم يمهله .

يقول حافظ وهبه : (إني أعتقد لو أن سعوداً اقتصر في الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حراً للأتراك والمصريين ، ولم يمسّ الناحية الحساسة في الترك – وهي السيادة على الحجاز – ما اهتم الأتراك بأمره ، فقد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتنة تأكل الأخضر واليابس .. وكانوا يحتملون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية ... وأي فرق في نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف ؟ الفريقان من العرب ، وأفضلهم من يحتفظ لهم بالسيادة ، ولو اسمياً ، مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحج .

.. ولقد سمعت من بعض شيوخ نجد ، وسمعت هذه الرواية أيضاً من جلالة الملك عبد العزيز ، انتقاداً لسياسة سعود :

إنه في الوقت الذي غاضب فيه الأتراك وردّ حجاجهم ، وكان فيه إحدى بنات أو شقيقات السلطان التركي ، كان يتهادى مع شاه ايران ويتقرب منه .

كما انتقده أيضاً في قبول نصائح الشريف غالب التي لم تكن تنطوي على الإخلاص ، بل كانت تنطوي على استثارة الناس ضد الحكم السعودي .

وإن الشيخ عبد الرحمن بن حسن قد نصح سعوداً بعدم الإصغاء لنصائح الشريف غالب ، كما نصحه أيضاً بالإعتدال في معاملة الأتراك والمصريين ، غير أن سعوداً ،كما قدمنا،كان شديداً، كما أنه كان شديد التعصب لرأيه) . – انتهى .

والحق إن الإمام سعود ربما كان مخطئاً في شدته مع الترك ، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن يقبل النصيحة من أحد ، وإنما هو رأي رآه فتمسك به ، والمرة الواحدة ليست قاعدة .

يقول أمين الريحاني : إن سعود ، لما دخل مكة ظافراً ، كتب إلى السلطان سليم كتاباً هذا معناه :

من سعود الى سليم

أما بعد ، فقد دخلت مكة في الرابع من محرم سنة ١٢١٨ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم ، بعد أن هدمت مـا هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقاً ، وثبّتُ القاضي الذي وليته أنت طبقاً للشرع ، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هـذا البلد المقدس ، فإن ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته) .

كانت لهجة الكتاب جافة.. ولم يتعوّد سلاطين آل عثمان أن يخاطبهم الناس بأسمائهم مجردة من ألقاب التعظيم والتفخيم.. وكانوا يكرهون « الديموقراطية » الحقيقية المرادفة للمساواة وعدم الاستعلاء على الناس بالمناصب والألقاب ..ومع ذلك لم يستطع السلطان سليم أن يفعل شيئاً ضد سعود الكبير ، فلما جاء السلطان محمود الثاني ، وكان من أدهى السلاطين وأمكرهم ، استعمل مكره ودهاءه في دفع محمد علي إلى قتال السعوديين وأمده بالسلاح والرجال والمال .

وبعد .. تحدثنا في هذا الكتاب عن الحروب والأحداث التي وقعت في عهد سعود ، ولم نرجع في ذلك إلى أقوال ابن بشر وحدها ، وإنما إلى الوثائق المطوية والمنشورة ، وإلى مؤلفات ومجلات وبحوث كثيرة ، ونرجو أن نكون وفقنا في ذلك شيئاً من التوفيق ، ونسأل الله سبحانه أن تكون الطبعات الجديدة من كتابنا أقل نقصاً ... وأن ينتفع منْ يؤلف بعدنا بما كتبناه ، ويزيد علينا كثيراً ويقدم للناس أفضل مما قدّمناه !.

ونحب أن ننبه ـ منذ الآن ـ الى أننا ظفرنا بوثائق مطوية تلقي أضواء كاشفة على بعض الأحداث التي بقيت غامضة حتى اليوم..ومن الأحداث التي عنينا بها: حادثان أغفلها مؤرخ نجد تماماً ، مع شدة عناية المؤرخين الغربيين بها وهما :

١ ــ ظهور بطلة سعودية في « تربة » اسمها « غالية » ، شبهها الافرنسيون

ببطلتهم القومية « جان دارك » التي جعلتها الكنيسة « قديسة » أيضاً ، وأما الترك فقالوا عن غالية إنها ساحرة تستخدم في معاركها جنوداً من الجن !.. [1]

٢ – إتصال الامبراطور نابوليون بالإمام سعود ، بتوسط مغامر كبير تنكر بملابس عربيــة وتسمى باسم « الشيخ ابراهيم » وجاء مع الشيخ دريعي الشعلان الى الدرعية ، وكان بينه وبين الامام سعود لقاء وحديث [2] .

قد يكون في هذين الحدثين شيء من التصوير الخيالي ، ولكنهما « واقعان » لا سبيل الى نكرانهما ، ولا يجوز أن يخلو منهما تاريخ عربي كامل .

وقد قدمنا بين يدي وقائع سعود وحروبه ، توطئة أتينا فيها على مبايعته ، ووصفه ، وسياسته الخارجية مع الافرنسيين والانكليز .

وقد أفردنا ، في آخر الكتاب ، خـــاتمة تحدثنا فيها عن أسلوب الإمام سعود في الحكم ، وعن موارده الماليـة ، وجيشه ، وأمرائه ، وقضاته ، وغير ذلك ، ثم تحدثنا عن السلطان العثماني محمود الثاني وعن والي مصر محمد علي اللذين قاما بحرب الإمام سعود .

---

(١) انظر ما كتبناه عن معارك تربة في حروب طوسون ، الصفحات ١٤١ وما يليها ..

(٢) انظر ما كتبناه عن هذا الموضوع في التوطئة .



السلطان محمود الثـــاني
الذي أمر واليه على مصر محمد علي باشا
بمحاربة الإمام سعود





رسم تذكاري « للنظام الجديد » الذي اتبعه السلطان محمود
في تدريب الجيش التركي وتنظيمه